إشكالية تأويل الخطاب السردي الجزائري
-دراسة في الأسس المنهجية الحداثية-

The problematic of interpreting the Algerian narrative speech
(A study in the modern methodological basis)

جيلالي بوداني*

أ.د . خيرة حمر العين ♣

تاريخ الإرسال: 2020/30/01	تاريخ القبول:2020/04/03	تاريخ النشر:2020/06/30

الملخص:

تتناول الدراسة البحث في إشكاليات المعنى في تأويل الخطاب السردي الجزائري من منظور النقد الحديث و المعاصر مع التركيز على تلك المقاربات التي قام بها النقاد الجزائريون المعاصرون ومحاولاتهم الإفادة من الإجراءات المنهجية الغربية السياقية والنسقية وتطبيقها على النصوص السردية الجزائرية، ممّا خلق نوعا من الاضطراب في تلقي هذه النصوص من الطرف القارئ العادي بسبب إشكالية الترجمة وتباين تركيبة كل بيئة ومحاولات بعض النقاد التركيب بين عدّة مناهج في تشريح النص الواحد وذلك الخلط في التسميات والآليات، وحتى محاولة التوفيق بين النقد الأدبي التراثي وبين النقد المعاصر، وعلى الرغم من كلّ هذه الرهانات يبقى البحث سائرا في محاولة تقريب المعنى للقارئ الجزائري.

الكلمات المفتاحية: التأويل، السرد، الخطاب، المنهج، النسق.

المؤلف المرسل: جيلالي بوداني djilaliboudani@yahoo.fr

* جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة. djilaliboudani@yahoo.fr

♣ جامعة أحمد بن بلة وهران 1 kheirahameurelaine@gmail.com

Abstract:

This study tackles the research in the problematic of semantics in interpreting the Algerian narrative discourse from the modern and recent critical view which stresses on those approximating which have been done by the Algerian modern critics in an attempt to profit from western systematic procedures through the context and pattern and applying them on the Algerian narrative texts. This latter, Leads to an ambiguity in perceiving these texts from the reader because of the problem of translation and the difference in the structure of each environment and the attempts of some critics to combine many methods in analysing the same text because the mixture of the designation and tools, even their efforts to familiarize between the inherited critical literature and the modern on. Although all these efforts. The research remains continuously in order to adduct the meaning to the Algerian reader.

***Key words**: the interpretation, narrative, the speech, the method, the system*

*** *** ***

1. مقدمة:

شغل الخطاب الأدبي الجزائري اهتمام النقاد الجزائريين المحدثين، فحاولوا مقاربته بآليات حديثة ومعاصرة بعد أنْ مكّنتهم الفرصة من الاطّلاع على ما يدور في الساحة الأدبية والنقدية في العالم الغربي الذي كان له السبق في التنظير للنقد الحديث والمعاصر، فاستورد نقادنا بعض المفاهيم المتعلّقة بالنقد السياقي والنسقي وحاولوا تطبيقها على الأدب الجزائري ونخص بالذكر فن القصة والرواية كونهما الفنين الأقدر على التعبير عن واقع الحياة، ومن أجل هذا حاولنا في هذه المقاربة استعراض بعض المحاولات النقدية الجزائرية المتعلّقة بفنّ السرد خاصة.

قسّمنا البحث إلى محورين :

- المحور الأوّل وقفنا فيه على تلك المحاولات المحسوبة على النقد التاريخي مع مطلع سبعينات القرن الماضي، ثمّ حاولنا التفصيل في كيفية الانتقال من تاريخية التأويل للمعنى إلى سوسيولوجيته مستعرضين تلك المقاربات التي اتخذت من النقد الاجتماعي نموذجا لها.

- المحور الثاني : أشرنا في بدايته إلى مدى عجز النقد السياقي عن استنطاق النص وكشف ما يخبّئه من قيم جمالية السبب الذي دفع إلى ظهور عدّة محاولات أفادت كثيرا من إجراءات النقد النسقي خاصة البنيوي، كتلك التي قام بها كل من مرتاض وبورايو وبوطاجين وفيدوح وبن مالك.

خلصنا إلى أنّ الواقع النقدي الجزائري المعاصر يبقى دائما يشهد النقص لا يلبي حاجيات القارئ الذي يطمح إلى الولوج إلى النص عبر نقد يستطيع الغوص في أعماق النص وتحليل بنياته و تذوّق قيمه الجمالية نظرا لعدّة أسباب - نذكر منها أزمة الترجمة للمصطلح وتماثل بعض الآليات وتداخل بعض المفاهيم ممّا أثّر سلبا على عملية التلقي وعملية الفهم للبنى الدلالية، مع هذا فإنّ ما قام به هؤلاء النقاد الجزائريون يمثّل اللبنات التي ينطلق منها كل من له ميول نحو العملية النقدية، ويفيد من مفاهيمها وآلياتها..

2. المحور الأوّل : تشكّل المعالم الأولى للنقد الأدبي السياقي في الجزائر:

2. 1. إرهاصات النقد التاريخي في الأدب الجزائري :

اتخذ تأويل الخطاب الأدبي الجزائري حيّزا مميّزا له منبنيا على تلك المحاولات التي قام بها بعض شيوخ الأدب والنقد في الجزائر أمثال محمد بن أبي شنب وأبو القاسم الحفناوي في مطلع القرن العشرين وهي مقاربات يعوزها الإطار المنهجي تقوم على البعد الوظيفي (التركيز على المضمون) برؤية تجزيئية قائمة على تصحيح الأخطاء اللغوية والعروضية التي تعتري النصوص إضافة إلى بعض التعاليق السطحية العامة[1]، وما هو متواضع عليه فإنّ النقد التاريخي هو بوابة النقد الأدبي الجزائري الحديث دون أن نغفل تلك المساهمات الصائبة التي قدّمها روّاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كتلك التي قام بها الشيخ البشير الإبراهيمي وأحمد رضا حوحو عبر الصحف الجزائرية آنذاك وكان من أهمّها المنتقد، الشهاب والبصائر[2] وهي مقاربات أتاحت الربط بين معطيات السياق الاجتماعي والسياسي والثقافي وبين تلك الإبداعات التي ظهرت على الساحة آنذاك، وتجدر الإشارة إلى أنّ البدايات الحقيقية للنقد السياقي الممنهج تأخّرت في الجزائر إلى غاية ستينيات القرن الماضي حين قام الدكتور أبو القاسم سعد الله بتقديم دراسة عن الشاعر محمد العيد آل

خليفة والتي هي في الأصل رسالة ماجستير تلتها محاولات أخرى من طرف عبد الله ركيبي ومحمد ناصر وعبد الملك مرتاض وصالح خرفي[3].

حاول أبو القاسم سعد الله دراسة الأدب الجزائري دراسة نقدية في إطار السياق التاريخي إذْ ضمّن كتابه " دراسات في الأدب الجزائري الحديث " قراءته للنصوص الأدبية محتكما إلى المراحل التاريخية التي ظهرت فيها، فقدّمت تلك القراءة صورة حيّة عن الأحداث التي وقعت في تلك المراحل[4]وقد أعقبت هذه الدراسة دراسات أخرى كتلك التي قام بها الدكتور عبد الله ركيبي عن القصة الجزائرية المعاصرة حيث اختار هو كذلك نفس المنهج الذي اختاره سابقه إذ يقول معلنا ولاءه للمنهج التاريخي: " اخترت المنهج الذي يجمع بين النقد والتاريخ...لأنّ الأدب يتطوّر بتطوّر التاريخ، والتاريخ يساعد على تحديد مراحل هذا التطوّر "[5]كما قدّم نفس الباحث دراسة أخرى في كتابه المعنون ب : "تطور النثر الجزائري الحديث" فخصّص القسم الأوّل من الكتاب للأشكال النثرية القديمة في الجزائر من خطب ورسائل ومقامات ومناظرات،وخصّص القسم الثاني للنثر الأدبي الحديث كالقصة والرواية والمقال مبرزا في دراسته هذه أثر المراحل التي مرّ بها النثر الجزائري وأهم الصراعات التي ظهرت في البيئة الجزائرية[6] أمّا الدكتور محمد ناصر فقد وقف دراسته في كتبه : "- دراسة في الشعر الجزائري الحديث (1925 1954) – الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1952 1975) – المقالة الصحفية الجزائرية (1903 1931) على الجانب التاريخي متتبعا مسيرة الأدب الجزائري ففي كتابه المقالة الصحفية الجزائرية أشار إلى أنّ " مراعاة المنهج التاريخي يعتبر جزءا من الجهد المتواضع الذي تقدّمه هذه الرسالة، لأنّها ترسم تطوّرا تاريخيا للفكر الجزائري... "[7]أمّا في كتابه الشعر الجزائري الحديث فقد رصد المؤثرات التاريخية في الحركة الشعرية الجزائرية مركزا على السياقات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي كان لها التأثير المباشر في الأشكال الشعرية المنظومة على تنوّعها وهو في إدراجه لتلك السياقات يؤكّد هيمنة الرؤية التاريخية المسيطرة في فهم الظاهرة الأدبية بكلّ تركيباتها المعجمية والإيقاعية والجمالية وكأنّه يولي اهتماما مقصودا بتلك الظروف الاستثنائية التي أحاطت بالإنتاج الشعري الجزائري ما بين 1925 و 1975،وهي الظروف التي فرضت على الشعراء وعلى كلّ من له صلة بالثقافة أو بمستوى فكري معيّن للمساهمة في تخليص البلاد من محنتها ودحض محاولات المستدمر ومناوراته لطمس الهوية الوطنية و القضاء على مقوّمات الشخصية الجزائرية[8]. ومن الأسماء التي

تركت بصمتها في هذا الاتجاه عبد الملك مرتاض ببعض أعماله : - فن المقامات في الأدب العربي، - فنون النثر الأدبي في الجزائر- نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر.

تشترك تلك المحاولات النقدية في التركيز على المعطيات التاريخية والاجتماعية والبيئية والمؤثرات النفسية.

2.2. سوسيولوجية التأويل للخطاب الأدبي الجزائري :

برزت على الساحة النقدية عدّة محاولات تبنت النقد التاريخي بالرغم من تأخرها بسبب الظروف التي حالت دون النهوض بالحركة الأدبية والنقدية، ولأنّ الأدب والنقد يلازمان المجتمع في كل تفاعلاته عبر الزمن فقد كان من البداهة ظهور المنهج الاجتماعي الذي يرجّح النقاد والعارفون بشؤون الأدب أنّه وُلد من رحم المنهج التاريخي، ونظرا لخصوصية المجتمع الجزائري فقد شهد النقد الاجتماعي للأدب حركية تمظهرت من خلال أعمال النخبة من المثقفين في نهاية القرن العشرين، فقد تبنّوا الطروحات السوسيولوجية التي تعتبر مدّا دخيلا على الأدب والنقد الجزائريين باعتبار المعطيات الاجتماعية والمادية والتاريخية الخاصة بالمجتمعات الغربية ليست هي نفس المعطيات العربية والجزائرية خاصة.

وما تجدر الإشارة إليه هو أنّ تمثّل الاتجاه الاجتماعي في النقد الأدبي الجزائري جاء نتيجة الاحتكاك بالمشرق العربي مع تبني القومية من جهة ومع اعتناق النظام الجزائري الاشتراكية التي سيطرت على مختلف نواحي الحياة في مطلع السبعينات من القرن الماضي لذلك سيطرت الإيديولوجيا الماركسية على الروح الثقافية[9]، فنشطت التآليف الأدبية والنقدية التي وجدت طريقها للذيوع عبر المجلات والجرائد التي شكّلت منبرا أدبيا وثقافيا لزرع الأفكار الاشتراكية والمفاهيم الماركسية كمفهوم الالتزام والأدب الهادف ومن تلك التآليف نذكر ما قام به الروائي مرزاق بقطاش حين ترجم مؤلّف الرواية لزعيم الاتجاه التاريخي وحتى الاجتماعي "جورج لوكاش" (Georg Lukacs) "[10]، كما بدأ اتجاه البحث ينحو منحى علاقة الأدب بالإيديولوجيا وقد كان هذا الطرح ممثّلا في كتاب " الأدب والإيديولوجيا " لعمار بلحسن، ولعلّ أبز النقاد الذين مثّلوا هذا الاتجاه واسيني الأعرج، زينب الأعوج ومحمد ساري ومحمد مصايف هذا الأخير الذي كان يؤمن بالرسالة الاجتماعية للأدب وبالدور الريادي للأديب في النضال بقلمه ذودا عن مطالب شعبه، كما ينيط بالناقد مهمة الكشف عن العلاقة بين الأعمال الأدبية وبين تطلّعات المجتمع[11]. يقول الدكتور مصايف: "... ربما كانت مسؤولية الأديب أكبر من مسؤولية الحكومة، وكانت رسالته أعظم الرسالات

في مجتمع تقدّمي مثل مجتمعنا"[12] من منظور مصايف فإنّ للأديب الدور الطلائعي في الإصلاح الاجتماعي وقد حاول هذا الناقد استخدام المنهج الاجتماعي بالمزاوجة بين خارج وداخل النص في تحليل الأدب، يتجلى ذلك في دراساته التي يكشف فيها عن تبنيه للمنهج الاجتماعي من حيث اتخاذ آلياته والتركيز على بعض ظواهره كظاهرتي الالتزام والأدب الهادف[13] ومن الأعمال التي كشف فيها عن اتجاهه : - النثر الجزائري الحديث – دراسات في الأدب والنقد – الرواية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام. أمّا الناقد محمد ساري فقد حاول كذلك الإفادة من طروحات أكبر منظري هذا المنهج "جورج لوكاش"(GeorgLukacs)"ولوسيان جولدمان" (Goldmann Lucien) فتشكّلت له رؤية نقدية اجتماعية مركّزة على وجوب اتخاذ النص للمجتمع أرضية ينطلق منها ولا يخرج عن حدودها[14] فهو يعتبر الأدب انعكاسا موضوعيا للتيارات الاجتماعية، وهذا لا يعني إهمال الوظيفة الجمالية له، ففي كتابه " البحث عن النقد الأدبي الجديد " كشف عن ضرورة الاهتمام بجمالية الخطاب الأدبي، والإكثار من الاعتناء بالمضمون تشجيعا لمن يعادون الاشتراكية للحكم عليها بأنها فاشلة لم تستطع خلق فن روائي أصيل[15]. وعن آليات مقارباته الاجتماعية ووسائله الإجرائية فهي لم تخرج عن تلك التي سنّها " جورج لوكاش " و"لوسيان جولدمان " مثل : البطل الملحمي، الرؤية المأساوية، رؤية العالم...

راح الروائي والناقد " واسيني الأعرج " يقوم ببعض المحاولات النقدية في إطار المنهج الاجتماعي أيضا خاصة في مقاربته المعنونة ب " اتجاهات الرواية العربية في الجزائر"، فقد خصّص الجزء الأوّل من هذه الدراسة للتمهيد لمقاربة النصوص ومواجهتها بخلفية تاريخية اجتماعية، فقسم المتون إلى مرحلتين : مرحلة النصوص التي أنجبتها الثورة التحريرية، ومرحلة التحولات الديمقراطية. أمّا القسم الثاني من الدراسة فكان تطبيقيا إذْ قسّمه إلى أربعة اتجاهات : الإصلاحي، الرومانتيكي، الواقعي النقدي، والواقعي الاشتراكي وضمن كل اتجاه يقارب أنموذجا روائيا برؤية اجتماعية تزداد وضوحا كلّما اقترب من الاتجاهين الواقعي النقدي والواقعي الاشتراكي وهذه الدراسة لا تخلو من استحضار السياق الاجتماعي للنص وتتبع انعكاسات السياق في المتن الروائي[16]. من الوسائل التي يتخذها واسيني للولوج إلى عالم النص مفهوم الطبقة بحكم اتصاله وتأثره بالرؤية المادية الجدلية إذْ يركز كثيرا على التناقضات الاجتماعية في النص الأدبي وما يمكن أن تفرزه من صراعات طبقية سيما نضال الطبقة المحرومة ضد الإقطاعية فهو يأخذ فقرة من رواية حاجي

محمد الصادق " على الدرب " : " نريد أن نصير جميعا في صف واحد نشكّل قوّة رادعة ضدّ الانعزاليين والمحايدين، أي نكون طبقة عمّالية مجندة من الفلاحين والمجاهدين والمثقّفين "[17].وما يميّز هذه الدراسة هو محاولة ربط النص ربطا وثيقا بالواقع الاجتماعي.

أنْ نحصي كلّ الدراسات ذات الاتجاه الاجتماعي فذلك أمر عسير نظرا لكثرتها وتعدّد النقاد الذين قدّموا مقاربات تصبّ في إطار هذا المنهج، أهمّ ما يميّز النقد الأدبي في تلك الفترة هو توجيه أهدافه نحو المضامين وتركيزه على الأعمال السردية أكثر من الأعمال الشعرية[18].

وُجّهت للمنهج الاجتماعي أصابع الاتهام بالتقصير والعجز نظرا لتماديه في الاهتمام بالسياق والوسائل الخارج نصية وإغفال الوقوف على القيم الجمالية للأدب، فظهر توجّه جديد يقود القارئ الناقد نحو النص لاستنطاقه وعدم الالتفات إلى الظروف التي أحاطت به والتركيز عليها، وبرز جيل جديد حمل لواء التجديد فكان النقد الجزائري على موعد مع مرحلة جديدة من مراحل تطوّره؛ مرحلة حاول فيها النقاد الانفتاح على الآخر والإفادة من تجاربه المعاصرة خاصة تلك التي اهتمّت بالنصوص السردية مع تطوّر علم السرد وتعدّد بؤر إنتاجه والعمل على نصوصه ممّا أتاح فرصة المثاقفة لنقّادنا المحدثين وتبني بعض المقولات النقدية الغربية ومحاولة تطبيقها على نصوصنا السردية.

3. المحور الثاني : ممارسات تأويل المعنى في الخطاب السردي الجزائري (مقاربات من منظور النقد النسقي):

حظي الخطاب السردي الجزائري باهتمام من طرف القرّاء المتخصصين الذين لم يبخلوا على الجمهور المتتبع للأدب الجزائري، فحاول هؤلاء بكلّ ما أوتوا من قوّة تأويلية تزويد المتلقي العادي بالآليات التي تساعده على الغوص في أعماق العوالم النصية الخفية والقبض على الدلالة واستقراء ما وراء الظاهر إيمانا منهم بحجم المسؤولية ومحاولة الارتقاء بالنص الأدبي والنقدي الجزائري السردي خاصة وانفتاحه على العالم الغربي بعدما عجزت المناهج السياقية في تحقيق نقد علمي محصّن، فتبلورت ممارسة النص في إطار المناهج الحداثية النسقية معتمدة على الإنجازات المحققة في حقل اللسانيات والسيميائيات وما وفّره المنهج البنيوي من آليات عكس المناهج التقليدية التي ألغت خصوصية النص معتبرة إيّاه مجرّد وثيقة قصد إنتاج خطابات هي أبعد ما تكون عن الأدب

[19]، و أصبحت اللغة الوتر الحساس في مقاربة النصوص الشعرية أو السردية هذه الأخيرة لقيت اهتماما بالغا من طرف النقد الحداثي بأدواته الإجرائية وذلك منذ اكتشاف أعمال العالم الروسي " فلادمير بروب "(Vladimir propp)خاصة كتابه الشهير " مورفولوجيا الحكاية " الذي يعتبر من أهم المرجعيات في التحليل السردي[20]فمن آلياته أخذ بعض النقاد الجزائريين يشتغلون على بعض النصوص الشعبية الجزائرية وبها كانت الانطلاقة الأولى للنقد النسقي الجزائري ونخص بالذكر محاولات بورايو ومرتاض.

1.3. تلقي بورايو لآليات المنهج البنيوي وإجراءاته :

لقد تبنى الناقد الجزائري" عبد الحميد بورايو " آليات النقد عند بروب عبر كتابه " مورفولوجيا الحكاية " حين راح يجمع ويحلّل القصص الشعبي الجزائري في دراسته الموسومة ب "القصص الشعبي في منطقة بسكرة – دراسة ميدانية - "، فالكتاب مدوّنة تجمع عددا كبيرا من النصوص الشعبية اتخذ منها الباحث ميدانا للتحليل والدراسة وهو منذ انطلاقته بالعنوان حدّد معالم المنهج الأنثروبولوجي مع اعتماده كذلك على المنهج البنيوي في التحليل[21]فهو إذْ يطرح العنوان بهذا الشكل فلأنّه حاول أن يكون دقيقا في طرحه : القصص جنس أدبي معيّن له خصائص بنيوية محدّدة، فهو على مستوى الوظيفة حكي لمجموعة من الأحداث و الحالات يقوم بها شخص محدد أو مجموعة من الأشخاص، يهدف من خلالها القاص إلى إيهام القارئ بما يصبو إليه ليجعله يتفاعل مع الأحداث، أمّا الشعبي : فهو من منظور الأنثروبولوجيين يقابل الأدبي[22].

حين وجّه " بورايو " عنايته للأدب الشعبي لم يجد مناصا من استبدال آليات النقد السوسيولوجي التي تبنّاها في بداياته النقدية، فالنقد الاجتماعي يستدعي حضور البيئة الزمكانية وهذا ما يتعذّر الوصول إليه عبر النصوص الشعبية الموغلة في الزمن فزمنها مجهول ومكانها أيضا مجهول والنقد النسقي الذي عوّض السوسيولوجي يلغي سلطة السياق فكان أنْ وجد " بورايو " ضالته في النموذج الوظائفي ل " فلادمير بروب " إذْ نجده في معظم دراساته -كخطوة أوّلية - تمثّل التحليل الخطي المتتبع للمسار التسلسلي السردي[23]،ومن خلال تبني هذا المنهج والعناية الفائقة بالأدب الشعبي من طرف هذا الناقد فقد تمكّن القارئ من استجلاء الكثير من الخصائص السردية التي تميّز هذا الجنس الأدبي خاصة في تلك الدراسة الميدانية التي قام بها المؤلّف والتي كانت محاولة جادة في تبني المنهج البنيوي، لقد قسّم بورايو دراسته هذه إلى ثلاثة فصول : - القصص الشعبي في منطقة

بسكرة - أنماط القصص الشعبي في منطقة بسكرة – البنية القصصية ؛ خصّص الباحث الفصلين الأول والثاني لتحديد الإطار التاريخي والاجتماعي للقصص الشعبي في حديث مطوّل مستهلا دراسته التطبيقية في الفصل الثالث بتحديد المنهج الذي تبنّاه " ننطلق في تصدّينا لدراسة نصوص القصص موضوع البحث من المفهوم الذي يرى في النشاط الفني تحققا لإمكانيات كامنة تعبّر عن نفسها من خلال مختلف أشكال التعبير، وبالتالي يرى في النص الأدبي مظهرا لبنية كامنة وسيكون هدفنا الكشف عن الهيكل البنائي للقصص "[24].

هذا تصريح واعتراف مباشر من طرف الناقد عن المنهج البنيوي الذي تبنّاه من خلال تطبيق آليات بروب، ويتّضح أن المنهج المتّبع من طرف المؤلّف تمّ على ثلاثة مراحل : 1. عملية الجمع للمادة القصصية، 2.تصنيف المادة المجموعة حسب أجناسها مع التركيز على الثوابت والمتغيّرات،3. تحليل ثلاثة نماذج من القصص الشعبي(غزوة الخندق – ولد المحقورة – الإخوة الثلاثة)[25] وقد سارت عملياته التحليلية على النحو التالي :

- رد القصة إلى وحداتها الأساسية واستقراء طبيعة علاقتها على مختلف المستويات المورفولوجية والتركيبية والدلالية اعتمادا على مبدأي التوافق والتخالف بين العناصر وينتج عن ذلك استنتاج النماذج التي تخضع لها البنية القصصية في مختلف مستوياتها.
- رصد علاقات وحدات القصة بالقيام على مستويين : المستوى التركيبي والمستوى الاستبدالي (علاقات الحضور والغياب).
- الاستعانة بالرسوم التوضيحية لتسجيل النماذج البنائية للوحدات القصصية.
- إرجاع النص إلى أقسامه السياقية الكبرى (الاستهلال – البداية – المتن – النهاية – الخاتمة).
- تلخيص أحداث القصة بغرض حصر وحداتها الوظيفية.
- إدراج القصة في بنيتها الكبرى[26].

منهجيا، طريقة التحليل هذه تنتمي إلى البنيوية التكوينية فالباحث سعى إلى تحديد البنية السردية للقصص محددا خصائصها ونظامها والعلاقات التي تتحكم فيه.

ومن نماذج الدراسة البنيوية التكوينية توظيفه لمصطلح رؤية العالم (مفهوم خاص ب " لوسيان جولدمان"): "... لأنّ رواية غزوة الخندق باعتبارها عملا أدبيا ذا طابع ثقافي، تقدّم كيانا متماسكا يعكس رؤية للعالم " ومصطلح الفهم والتفسير: " يحق لن أنْ ننتقل

الآن إلى جانب آخر من الدراسة يتمثل في مرحلة شرح النص "[27] (استخدم الشرح بدل التفسير). تمكّن الباحث من خلال دراسته هذه من التعرّف على طبيعة القصص الشعبي ووظيفته، أي على بنيته التركيبية ودلالة ذلك على المجتمع، يقول الناقد في مدوّنته : " إذْ أنّ وجوده (القصص) مرتبط بما يؤديه من وظائف في البناء الاجتماعي للمجتمع الشعبي، فهو جزء من البناء الثقافي، يعكس الوجود الاجتماعي، نجده يتضمّن صورا من الواقع الاجتماعي، بقيمه وعلاقاته... "[28].

لا يقتصر تحليل "بورايو"على دراسة المستوى المعجمي والتركيبي فقط، وإنّما نجده يصبو إلى استجلاء العلاقة الرمزية الواصلة بين بنى النص وبين البنى العقلية للجماعة التي احتضنت تلك النصوص المعبّرة عن رؤيتها ومعتقدها وعليه فهو لم يتقيّد حرفيا بآليات المناهج الغربية، بل الملاحظ على مقارباته هذه هو أنّه كان يسعى إلى ابتكار طرق خاصة في التعامل مع مثل تلك النصوص بالاستناد على المناهج الغربية ليبني صرحا نقديا خاصا به يحمل بصمته[29].

يمكن القول أنّ الدكتور "بورايو" تلقى المنهج البنيوي معتمدا على كبار منظري البنيوية : "فلادمير بروب "(Vladimir propp)، "تزيفتان تودوروف "(Tzvetan Todorov)،" رولان بارث "(Roland Barth)، "جيرار جنيت "(Gérard Genette) ووظّف العديد من إجراءاتهم ومصطلحاتهم فقد أخذ النموذج الوظائفي عن "بروب " وعن " غريماس " الاختبار والأدوار العاملية وعن " جولدمان " رؤية العالم والفهم والتفسير وعن " جنيت " الرؤية والتبئير. واشتغاله على القصص الشعبي ضمن له هذا التوجه نحو البنيوية كون النص الشعبي مجهول المؤلف الأمر الذي دعت إليه البنيوية بشعارها موت المؤلف. مقاربة بورايو الموسومة ب " القصص الشعبي في منطقة بسكرة " كشفت عن وعي المؤلف ومعرفته للمناهج الغربية التي اطّلع على نظرياتها وآلياتها وإجراءاتها، لكن يمكننا القول عن بورايو أنّه على غرار عامة البنيويين يقدم مادته البنيوية في شكل معادلات رياضية ورسوم هندسية قد تنير درب القارئ كما قد تزيده تيها[30] وحتى وإنْ تلقى آليات البنيوية التكوينية في مرحلة مبكرة من دخولها إلى النقد الجزائري إلاّ أنّه لم يستقرّ على منهج واحد حاله حال أغلبية نقادنا الذين يبدو أنّهم اختلط عليهم أمر النقد فلم يتمكّنوا من ناصيته فالتبس الأمر على القارئ المتلقي ووقع في حيرة وهو يواجه المصطلح الوافد.

2.3. الأسس المنهجية في المقاربات النقدية لسعيد بوطاجين:

تشكّلت الرؤية النقدية لدى السعيد بوطاجين من خلال الاطّلاع على أسس المناهج النسقية وآلياتها خاصة المنهج البنيوي والمنهج السيميائي، فظهرت العديد من كتاباته النقدية ذات الصلة بالمنهجين المذكورين كشف فيها الناقد عن ممارسته النصية، ومن تلك المحاولات :

- الاشتغال العاملي (دراسة سيميائية) في غدا يوم جديد لعبد الحميد بن هدوقة صدر عن منشورات الاختلاف، الجزائر سنة 2000.

- السرد ووهم المرجع (مقاربات في النص السردي الجزائري الحديث) صدر عن منشورات الاختلاف 2005.

- الترجمة والمصطلح (دراسة في إشكالية ترجمة المصطلح النقدي الجديد)، منشورات الاختلاف 2008.

بالإضافة إلى بعض الدراسات التي نشرها في المجلات، ونذكر منها : - كيف صيغت قصص عمار بلحسن ؟ نُشرت في مجلة القصة، منشورات الجاحظية 1996. - تيميمون، رواية رشيد بوجدرة (مقاربة سردية) مجلة اللغة والأدب 1997.

يكشف الناقد في دراسته الاختلاف العاملي عن توجهه السيميائي فالنموذج العاملي بنية ثابتة تضم العلاقات بين العوامل " بعيد عن أي استغلال دلالي إيديولوجيا لطابعه الشكلي، ويعتمد البنى الشاملة دون الوحدات الصغرى المنتجة للمعنى "[31].

اجتهد الناقد في التعامل مع نظرية " غريماس " السيميائية فقسم عمله على النحو الآتي : - مقدمة : تناول فيها الباحث إشكالية المنهج والمصطلح ثم تمهيد ذكر فيه إشكالية العامل

الفصل الأول : تطرق إلى الترسيمات الخمس للبرنامج السردي :* ترسيمة : المدينة / الموضوع * ترسيمة : الكتابة / الموضوع * ترسيمة : الزاوية / الموضوع * ترسيمة : الأرض / الموضوع * ترسيمة : المدينة الموضوع2.

الفصل الثاني : المثلثات العاملية التي تتجلى بها البنية العميقة.

خاتمة الدراسة : تطرق فيها إلى البنية العاملية وكيفية إبرازها للتوزيع المعقد لمجموع العوامل وكيفية انتظامها من خلال مجموعة من الاستنتاجات[32].

للدكتور بوطاجين محاولات أظهر فيها اعتماده على الآليات البنيوية يمكن أن تكون مثالا جيّدا على استثمار نقادنا الجزائريين للمنهج البنيوي فقد كان أمينا في نقله للمفاهيم

البنيوية إلى النقد الجزائري من حيث توظيفه المباشر لإجراءاتها وتعويله الكبير في ذلك على المؤلفات النقدية لكبار البنيويين[33]. أمّا مقاربته المذكورة (الاشتغال العاملي) فكانت ممنهجة وفق البنيوية أكثر منها السيميائية كون الناقد اعتمد فيها على إجراءات المنهج البنيوي لاستخراج حركة العوامل في الرواية اعتمادا على النموذج العاملي الذي وضعه " أ.ج. غريماس " ومع أنّ غريماس يعد أحد مؤسسي السيميائية السردية، إلاّ أنّ نموذجه العاملي لم يتعدّ حدود التحليل البنيوي للقص[34] .

تبقى الإشكالية مطروحة : هل يمكن للنقد الجزائري أنّ يرسو في برّ الأمان ؟ وهل يمكن له أن يتخلّص من عقد الالتباس وأنّ يتمكّن من التحكم في التعامل مع المصطلح الآخر الوافد ؟ وتبقى الأسئلة مطروحة إلى غاية بروز نخبة من النقاد تستطيع الرسو به آمنا.

3.3. استراتيجية التركيب المنهجي في تشريح النص لدى عبد الملك مرتاض :

لا يمكن لأيّ باحث أن ينكر ما قام به الناقد عبد الملك مرتاض من جهود أفادت المهتم المتذوّق للأدب وللعملية النقدية بالكثير من المعارف المتعلّقة بهذا المجال، نجده قد أدلى دلوه في شؤون المنهج البنيوي كما خاض في السيميائية والتفكيكية وحتى المناهج السياقية أو التقليدية في مرحلة متقدمة من مراحل تعامله مع المادة النصية وبتنوّع الآليات والإجراءات قارب العديد من الأعمال السردية والشعرية الجزائرية وغير الجزائرية، فعطائية النص تتناسب تناسبا طرديا مع مرونة المنهج النقدي المطبّق عليه، ومدى انفتاحه ودرجة تطويعه لاستيعاب ما يتيحه النص من خصوبة دلالية وجمالية، من هذا الطرح حرص الناقد على إخضاع المنهج لخصوصية النص، والتضحية بشيء من خصوصية المنهج والتقليل من درجة نفوذه[35]وليس العكس، من هنا يأتي التنوّع المنهجي ويصبح النص صاحب السلطة في توجيه القارئ إلى الطريقة الأنفع لتحليله، فالنظر إلى النص بنظرة أحادية قد لا تؤتي أكلها، وعن هذا التوجه يقول الدكتور مرتاض :"... وفي كلّ الأطوار يعسر على أيّ قارئ محترف (لنقل ناقد) أنْ يأتي إلى نص فيقبل عليه بأدوات أحادية المنظور، أحادية التقنيات. ولأوضّح ما أريد قوله أكثر : إنّ من السذاجة أنْ نزعم أنّنا نبلغ من النص الذي نودّ قراءته منتهاه إذا وقفنا من حوله، مسعانا على منظور نفساني فحسب، أو منظور بنيوي فحسب مثلا...من أجل ذلك تجنح التيارات النقدية المعاصرة إلى ما يطلق عليه في اللغة الجديدة :« التركيب المنهجي » وذلك لدى إرادة قراءة نص أدبي ما، مع الاجتهاد في تجنيس التركيبات المنهجية حتى لا يقع السقوط في التلفيقية"[36]. هذا إفصاح

جلي عن وجوب تسلّح الناقد بأكثر من منهج واطّلاعه على العديد من الإجراءات التحليلية حتى يتسنى له خوض غمار النص وتلقيه، فالسلطة المطلقة لطبيعة النص هي التي تستدعي طبيعة المنهج وحتى التنوّع افي المناهج لمقاربة النص الواحد، ويؤكّد الباحث طرحه بالاستناد على ما تبنّاه «لوسيان جولدمان » فيقول :"...وقد ألفينا بعض المفكرين الفرنسيين، وخصوصا قولدمان، حاول المزاوجة بين النزعتين البنيوية والاجتماعية بتحويلهما إلى تركيبة منهجية، بل معرفية أيضا جديدة هي البنيوية التكوينية " [37] .

نجد هذا التوجه نحو المرونة في المواجهة النصية ومحاولة التجرّد من صرامة المنهج الواحد تتويجا لانشغال عميق بمسألة المنهج في دراسة النص ونقده، هذا الانشغال الذي جعله يتمثّل الهاجس المنهجي في هيئة كابوس أو جاثوم، فقد ردّد الدكتور مرتاض كثيرا في كلّ حال من أحوال ممارساته النقدية اشمئزازه القاتل من التعصب المنهجي[38]، لكن هناك من اعتبر مذهب مرتاض يشوبه النقص بل ما هو إلاّ مجرّد إغراء على الواجهة أما المحتوى فهو ثرثرة لاتسمن ولا تغني من جوع ونخص بالذكر الناقد محمد عزام الذي يقول :"والواقع أن مرتاض يغري القارئ بعناوين كتبه، فإذا ما قرأها القارئ الحداثي خاب أمله، لأنه لا يجد فيها ما كان يؤمله من نقد حداثي منهجي. إضافة إلى أن معظم كتبه يحمل عناوين فرعية تجمع بين منهجين نقديين، هما على الأغلب : السيميائي والتشريحي (أو التفكيكي) لكن مضمونه يخالف عنوانه تماما، فهو بعيد حتى عن التوفيق (أو التلفيق) بين منهجين أو أكثر"[39].

قد يكون هذا الزعم من طرف "محمد عزام" نابعا عن سوء تلقٍ فالدكتور مرتاض، وكما سلف الذكر لا أحد ينكر جهوده في التقعيد للنقد المعاصر ونقل إجراءاته من بيئتها الغربية إلى البيئة العربية ومحاولة تكييفه في جوّ مغاير تماما، وهو حين راح يركّب بين منهجين مثلا فلِقصد التخفيف من صرامة المنهج وضغطه على النص، ولعلّ أشهر الوسائل اللامنهجية التي عمد إليها الناقد انْ تكون محاولة التركيب بين مناهج لم يسبق التركيب بينها، كما ركّب بين السيميائية والتفكيكية في كتابيه: (ألف ليلة وليلة) و (تحليل الخطاب السردي)، مع حرص كبير على المجانسة بين العناصر المنهجية المركّب بينها خشية تفادي الأخطاء الفادحة التي وقع فيها غيره[40]،ضف إلى ذلك فمقارباته المتنوّعة للنصوص التراثية والنصوص المعاصرة برؤى نقدية حداثية تستلهم زادها النقدي من بؤرة

هذه المناهج النقدية المعاصرة ممّا جعل دراسته تتّسم بسمة مميّزة تكشف عن مدى استيعابه ووعيه لمختلف النظريات النقدية الحديثة وإلمامه بالتراث العربي[41].

يبدو أنّ القصد من محاولة مرتاض التركيبية المنهجية ما هي إلاّ محاولة العودة إلى النص الذي يفرض بطبيعته آليات مقاربته، لكن الأمر ليس باليسير على المتلقي البسيط الذي لم تتحْ له الفرصة بأنْ يطّلع ويستوعب جميع الإجراءات النقدية.

4. خاتمة:

خلاصة القول فإنّ تلقي الآليات المنهجية الغربية ومحاولة تطبيقها على النصوص العربية جهود صائبة أفادت الكثير من القرّاء وهي محاولات عسيرة الأمر،لكن إشكالية ترجمة المصطلح تبقى مطروحة الأمر الذي صعّب المهمّة وسبّب الاضطراب للقارئ العربي، وحتى ذلك القصور بأسبابه المختلفة في عملية التلقي أخلط الأمور على النقاد العرب المعاصرين الذين حاولوا استنطاق النص السردي خاصة بأطروحات غير أطروحاتهم ساهم إلى حدّ كبير في التأثير سلبا على العملية التأويلية، فالنص العربي له كيانه وخصوصياته التي تميّزه عن غيره، والنص السردي الجزائري هو خلاصة تفاعل صاحبه واندماجه في بيئته الخاصة تلك البيئة المتميّزة بتاريخها بطبيعتها بمجتمعها، وهو الأقدر على التعبير عن هموم وتطلّعات مجتمعه من منظور أغلبية النقاد. قراءة ذلك النص وتشريحه بوسائل مستوردة قد تكون درجة استقبالها واستيعابها متفاوتة بين المتلقين عملية تتطلّب خبرة ومراسا لا يتأتى لأيٍّ كان ممّن خاض غمار التجربة النقدية.

5. الهوامش:

[1] يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللاّنسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر2002، ص 09.

[2] محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط02،الجزائر، 1984 ص 05.

[3] يوسف وغليسي، المرجع السابق، ص 22.

[4] محمد مكاكي، التجربة النقدية الجزائرية المعاصرة، دارجليس الزمان، ط01، عمان، الأردن، 2014، ص34.

[5] عبد الله ركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983، ص 06.

[6] عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المنظمة العربية للتربية والثقافة، القاهرة مصر،1976، ص 260.

[7] محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ج 01، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر1978، ص17.

[8] يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص 27 28.

[9] محمد مكاكي، المرجع السابق، ص 37.

[10] المرجع نفسه، ص 37.

[11] يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص 46.

[12] محمد مصايف، دراسات في الأدب والنقد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1988، ص 63، 64.

[13] ينظر: محمد مكاكي، المرجع السابق، ص 38.

[14] ينظر: يوسف وغليسي، النقد الأدبي الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص53.

[15] محمد ساري، البحث عن النقد الأدبي الجديد، دار الحداثة، بيروت، لبنان 1984، ص61.

[16] صليحة لطرش، تحولات الفكر النقدي العربي المعاصر، النقد الأدبي الجزائري (1970 – 2012) أنموذجا، رسالة دكتوراه العلوم، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2 السنة الجامعية 2016 2017 : ص47.

[17] واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1986، ص 09.

[18] محمد مكاكي، المرجع السابق، ص 40.

[19] حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف، ط 01، الجزائر2007، ص 363.

[20] المرجع نفسه، ص 403.

[21] المرجع نفسه، ص 439 .

[22] المرجع نفسه، ص 436.

[23] حمزة بسو، آليات التحليل النقدي عند عبد الحميد بورايو، رسالة ماجستير، جامعة سطيف 02، الجزائر، السنة الجامعية، 2012 - 2013 ص 34.

[24] عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة – دراسة ميدانية -، وزارة الثقافة، الجزائر2007، ص 137.

[25] حسين خمري، المرجع السابق، ص 439.

[26] محمد مكاكي، المرجع السابق، ص 113 – 114.

[27] عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، ص 196 -197.

[28] عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، ص 53.

[29] ينظر: حمزة بسو، المرجع السابق، ص 110.

[30] يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللاّنسونية إلى الألسنية، ص 127.

[3131] سعيد بوطاجين، الاشتغال العاملي (دراسة سيميائية في غدا يوم جديد لعبد الحميد بن هدوقة) منشورات الاختلاف، الجزائر2000، ص 10.

[32] ينظر: سعيدة حمداي، الخطاب النقدي الجزائري – نقد السرد أنموذجا -، مذكرة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، السنة الجامعية 2011 /2012، ص 78.

[33] محمد مكاكي، المرجع السابق، ص 101.

[34] المرجع نفسه، ص 94.

[35] يوسف وغليسي، في ظلال النصوص (تأملات نقدية في كتابات جزائرية)، جسور للنشر والتوزيع، ط 02، الجزائر 2012، ص 306.

[36] عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري (تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا 2005، ص08.

[37] المرجع نفسه، ص 08.

[38] يوسف وغليسي، في ظلال النصوص، ص 307.

[39] محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، (دراسة في نقد النقد)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق سوريا 2003، ص 145.

[40] ينظر: يوسف وغليسي، في ظلال النصوص، ص 313.

[41] - بشير تاوريريت، مناهج النقد الأدبي المعاصر (دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيقية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مصر 2008، ص 158.

*** *** ***